



منزلة الإخلاص

د. عماد يونس - الأردن

مقدمة

كان رسول الله ﷺ أشدَّ الرُّسل حرصًا على أُمَّته وخوفًا عليها في أمور الدِّين والدُّنيا، وكان أشدَّ ما يخافُ عليهم الفتن وما هو أشدُّ منها؛ فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: «خرج علينا رسولُ الله ﷺ ونحن نتذاكرُ المسيحَ الدَّجالَ فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدَّجالِ» قال: قلنا بلى، فقال: «الشُّركُ الخفيُّ؛ أن يقومَ الرَّجلُ يصلي فيزَيِّنُ صلاته لما يرى من نظر رجلٍ»^١، فما المعنى الحقيقيُّ للإخلاص؟ ومتى يكونُ العملُ خالصًا لله تعالى؟

تعريف الإخلاص

إنَّ منزلة الإخلاص عظيمة، فهو شرط قبول العمل بل أوَّلُ شروطه، فقد قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾

[الزمر: ٢]، والله تعالى لا يقبلُ من أعمال العباد إلَّا ما خلصَ منها له سبحانه، وقد ذكر العلماء في تعريفه الكثير، منها قولهم: «أن تكون حركاتك وسكناتك في سرِّك وعلانيَّتكَ لله وحده لا شريك له»، لا يمازجه شيء؛ لا نفس ولا هوى ولا دنيا، ويشمل هذا كلَّ أعمال القلب واللسان والجوارح، وهو أيضًا تصفية العمل من كلِّ شائبة؛ فيتوجَّه العبد بقلبه ومقصوده ومطلوبه لله وحده ﷻ، والإخلاص كما قال ابن القيم: «هو توحيد الإرادة والقصد»، فيكون المراد الله سبحانه وتعالى فلا يلتفت عنه طرفة عين. المخلص هو الذي يستوي عنده المادح والقادح؛ فلا يتأثر قلبه لمدح ولا لذم؛ فالإخلاص ليس مستحيلًا، ولا يمكن بأيِّ حال من الأحوال أن يكلف الله تعالى خلقه أكثر من طاقتهم، وإنَّما قال ﷻ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فمنزلة توجَّه القلب بالإخلاص لخالقه جلَّ وعلا يسيرة لمن فهم كيف يسمو بنِيَّته عن أي تعكير قد يخالطها، فلا يستثقل الكلام عن الإخلاص مهما بلغت به وساوس النفس مبلغها؛ فقد قال بعض السلف: «لو كان

١ - ابن ماجه، (٤٢٠٤).

الأمر بيدي لأقمت في كل مسجد وجامع رجلاً يعلم الناس الإخلاص»، والنبي ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات»^(١)، ويقول أحد السلف: «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل، فالعمل الذي لا إخلاص فيه، جسد لا روح فيه». ويقول ابن الجوزي: «الإخلاص منك مصون في منك (جلد القلب، ينبه ربحه على حامله، العمل صورة والإخلاص روح؛ إذا لم تخلص فلا تتعب»، فحال من عمل ولم يخلص كحال الحاج الذي قام بسائر المناسك وفوت على نفسه شهود الموقف بعرفة؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «الحج عرفة»^(٢).

إن في سيرة صحابة رسول الله ﷺ من العبر ما تدمع له العين خجلاً من تعظيم منزلة الإخلاص عندهم -رضي الله عنهم-، فقد كان منهم من أراد الخروج مع رسول الله ﷺ للجهاد، وحاولوا أن يعدوا له عدة فما استطاعوا؛ فهاجرت قلوبهم مع النبي ﷺ وعبرت الصحاري وجاهدت، وشوهدها وهم يقاتلون في ساحات الجهاد؛ فلم يضرها أنها لم تغبر في سبيل الله تعالى، وقد بين النبي ﷺ تفسير هذا المشهد العظيم؛ فعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: «كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فقال: «إن بالمدينة لرجالاً ما سيرتهم مسيراً، ولا قطعهم وادياً، إلا كانوا معكم؛ حبسهم المرض. وفي رواية: إلا شركوكم في الأجر»^(٣)؛ وهذا يدل على أن الإخلاص روح لا يضرها ما يقع على البدن ولو خنط وبقي على حاله!

وعرف الإخلاص كذلك بأنه أجود أنواع الطيب، وكلما اشتد ستره بالثياب فاح ربحه وطاب، وخلاصة القول في تعريف الإخلاص أنه: «خلوص القلب والقصد والتوجه والإرادة لله ﷻ».

معززات الإخلاص

تعكز مضادات الإخلاص صفو النية كالرياء، وحب الشهرة وحب المدح ونحو ذلك، ومن أهم معززات الإخلاص:

١. **الدعاء:** إن الكلام عن القلوب يقتضي أن يكون المتكلم بمنزلة الطبيب؛ فيتمكّن من وصف الدواء بدقة ومهارة، وقد كان الدعاء ولا يزال الوصفة الأولى والأنجع في تعزيز الإخلاص في قلوب المؤمنين والمؤمنات؛ فالله ﷻ هو مالك القلوب ومقلبها كيف يشاء، فمن العقل والحكمة أن يسأل العبد مقلب القلوب أن يمنّ عليه بالإخلاص، فمن

خاف فساد نيته وتعكّر قصده والتفات قلبه لغير الله تعالى، ووجد في نفسه رغبة في شكر الناس له وثنائهم عليه، وبدأ في تجميل صورته أمام الخلق؛ عندئذ يجب عليه أن يكثر من الدعاء في لحظات السجود علّها تصادف لحظة إجابة أن يمنّ الله تعالى عليه بالإخلاص، وقد علم رسول الله ﷺ صحابته -رضوان الله عليهم- بقوله: «يا أبا بكر، للشرك أخفى من ديبب النمل، والذي نفسي بيده للشرك أخفى من ديبب النمل، ألا أدلك على شيء إذا فعلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفر لك لما لا أعلم»^(٤)؛ والشرك المقصود هنا هو الرياء، وهو ضد الإخلاص، والناس في هذا الباب قسمان: قسم يخشى من عدم تحقيق الإخلاص، وقسم لا يفكر إطلاقاً في أمر الإخلاص.

لذلك يسعى المؤمن العاقل لتعزيز الإخلاص في قلبه وتنمية شجرته؛ حتى يتفياً ظلالها، ويرتفع عند ربّه فيبلغ بها المنازل العالية ولو قصرت به الأقدام. ومن رام ذلك فلا يدع في يومه وليلته أن يقول كما علمه رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفر لك لما لا أعلم»، ولا قوله ﷺ: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»^(٥).

٢. **قطع تعلّق القلب بالخلق:** إن من أعظم مثبّطات الإخلاص تعلّق القلب بالخلق؛ طلباً للمدح والثناء والإعجاب، فالعاقل من يقطع تعلّق القلب بالمخلوقات، ويتعلّق بمقلب القلوب، ولذلك فأحسن ما قيل في هذا المقام: «اقطع تعلّق قلبك بقلوب تتقلب، وعلق قلبك بمقلبها»، فما أشد حسرة من قصد بقلبه الخلق فأدبر الخلق عنه! فلا يجدر بالمسلم أن يلتفت قلبه عن الخالق سبحانه وتعالى لأجل أي شيء آخر في هذه الدنيا؛ لذلك قال ابن القيم: «إذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص، فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والرّهد في الثناء والمدح، سهل عليك الإخلاص، وذبح الطمع يسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبید الله وحده خزانته، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه، والرّهد في الثناء والمدح يسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده»^(٦).

٥ - صحيح الأدب المفرد، الألباني، (٥٥١).

٦ - المصدر نفسه، (٥٢٧).

٧ - الفوائد، ابن القيم، ص ١٤٩.

٢ - البخاري، (١).

٣ - الترمذي، (٨٨٩).

٤ - مسلم، (١٩١١).

٣. إخفاء العمل: إن من أعظم ما يعزز الإخلاص في القلب

وبربي النفس على قصد الخالق سبحانه؛ الاجتهاد في إخفاء العمل والإكثار من أعمال السر، فإن كان كل عمل الإنسان من صلاة وصيام وقراءة قرآن وطلب علم أمام الناس يروونه ويسمعون به، ولم يجعل بينه وبين الله تعالى خفايا، فهنا تكمن المشكلة الحقيقية التي يجب معالجتها لأنها تعرض الإخلاص للخطر، فأعمال الخفاء عظيمة لا تفوت والأصل فيها أن تبقى خفية.

وهذا منهج السلف، إذ كان أحدهم يصبح صائما لا يعلم عنه أحد من الخلق شيئا، يتصدق بطعام إفطاره، ثم يعود بعد المغرب ليتناول الطعام مع أهله كأن شيئا لم يكن، ويقول محمد بن واسع: «لقد أدركت رجلا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة وقد بل ما تحت خده من دموعه ولا تشعر به، ولقد أدركت رجلا يقوم أحدهم في الضف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي بجانبه»، فأكثر ما يكدّر صفو الإخلاص الكلام عن العمل.

وكم أتألم اليوم حينما أرى من يصور طاعته وما يفعله من خير للعلن؛ فقد يضيع الأجر ويخالط نقاء إخلاصك الرياء وحب الظهور؛ لذلك أيها المؤمن: توجه إلى قلبك بالسؤال: هل بينك وبين الله تعالى خفايا وخبايا لا يعلمها سواه؟

٤. تدكّر عقوبة الرياء: الرياء ضد الإخلاص، وهو التفات القلب

إلى غير الله تعالى، فالمرائي يفوت على نفسه منزلة الإخلاص لأنه يريد بأعماله غير الله تعالى،

وعواقب الرياء وخيمة على مرتكبه منها:

• أن المرائي أول من تسعّر به النار يوم القيامة: -نسأل الله

السّلامة والعافية-، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعزّفه نعمة فعزّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعزّفه نعمة فعزّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقلّ عالم، وقرأت القرآن ليقلّ: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله

عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعزّفه نعمة فعزّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقلّ: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار»^٨.

• **الرياء من صفات المنافقين:** قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالاً يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٤٢)، فمن لم يحب أن يكون من المنافقين؛ فليطهر قلبه من الرياء.

• **محشر مخز يوم القيامة:** قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء؛ يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟»، فينبغي خاصة لمن يشتغل بالدعوة إلى الله وبالعلم الشرعي؛ أن ينزجر ويخاف من أن ينجو يوم القيامة من كان يدعوهم إلى الله تعالى ويهلك هو -والعياد بالله-، وقد قيل:

كأنني شمع ما بين قوم تضيء لهم ويحرقها اللهيب

• **انطفاء النور:** عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «إن الله يعطي على الصراط للناس نورا على قدر أعمالهم... من ذلك أهل النفاق فينطفئ نورهم»^٩، لأنهم كانوا يخادعون الناس في الدنيا. والنفاق نوع رياء.

• **الفضيحة يوم القيامة:** قال رسول الله ﷺ: «من يستمع

يستمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»^{١٠}. والمرائي سيرى أعماله يوم القيامة هباء منثورا، قال الله تعالى: ﴿... كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ (النور: ٣٩)، لذلك فالحذر من الرياء واجب، والحرص على الإخلاص واجب، فكل عمل ليس فيه إخلاص فهو حسرة وندامة على صاحبه -نسأل الله السلامة والعافية-.

٨- مسلم، (١٩٠٥).

٩- أحمد، (23630).

١٠- متفق عليه.

١١- متفق عليه.